تفسير سورة طه

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى

اللقاء الثامن

أبرز القضايا والمحاور في السورة وعلاقتها بموضوع السورة: ملامح تتعلق بموقف المشركين من المؤمنين ودلالات السورة عليها: ولئن اشتد الأذى بالرسول -ﷺ- فإن المسلمين قد نالهم أيضاً من الأذى الجسدي والمعنوي عناءً كبيراً. نزلت سورة (طه) بدلالات وإشارات فيها تثبيت للمسلمين على الدين، ومن ذلك ما يلي: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة في هذه السورة (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي) في الوقت الذي كان المسلمون يستخفون بها في الشعاب. حكى الله خبر تعذيب فرعون لبني إسرائيل (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ) ونجاتهم بالخروج من مصر، في الوقت الذي كان المسلمون يعذبون بمكة، وكأن في ذلك إيماء إلى أن عاقبتهم ستؤول إلى النجاة، وعاقبة معذبيهم إلى الهلاك. في السورة تثبيت للمؤمنين من خلال إيضاح حال المؤمنين من السحرة الذين ثبتوا على إيمانهم غير آبهين بتوعد فرعون الشديد. (موسوعة التفسير الموضوعي). وموقفهم هذا هو موقف كل من يُعادي من يتمسك بهذا الدين في وقتنا الحاضر، وفي الآيات ما فيه تثبيت لهم.

المعنى الإجمالي: من الآية (99) إلى الآية (114):

يقولُ الله تعالى: كما قَصَصْنا عليك -يا مُحَمَّدُ- قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِهما، كذلك نقُصُّ عليك أنباءَ السَّابقينَ لك، وقد آتيناك مِن عِندِنا هذا القُرآنَ العَظيمَ.

ثمَّ بيَّن تعالى عاقبةَ مَن يعرضُ عن هذا القرآنِ، فقال: مَن أعرَضَ عنه فلم يؤمِنْ به ولم يعمَلْ بما فيه، فإنَّه يأتي رَبَّه يومَ القيامةِ يحمِلُ إثمًا عظيمًا، خالدينَ في جزاء هذا الإثمِ في النارِ، وبِئسَ ذلك الحِملُ الثَّقيلُ يومَ القيامةِ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه أحوالَ المجرمينَ عندَ الحشرِ، فقال: يومَ يَنفُخُ الملَكُ في «القَرنِ» فتُبعَثونَ بأمرِ اللهِ، ونحشُرُ الكافرينَ ذلك اليومَ وهم زُرقٌ. يتهامَسونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ: ما لَبِثتُم في الحياةِ الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ. نحن أعلَمُ بما يقولونَ ويُسِرُّونَ حين يقولُ أعلَمُهم وأعدَلُهم قَولًا: ما لبثتُم في الدُّنيا إلَّا يومًا واحدًا!

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أحوالَ الجبالِ، وأحوالَ الناسِ يومَ القيامةِ: ويسألُك -يا محمَّدُ- قَومُك عن مصيرِ الجِبالِ يَومَ القيامةِ، فقُلْ لهم: يُزيلُها ربِّي عن أماكِنِها فيَجعَلُها هباءً مُنبَثًّا، فيترُكُ مواضِعَ الجبالِ حينئذٍ مُستويةً مَلساءَ، لا نباتَ فيها ولا بناءَ. لا يرى النَّاظِرُ إليها مَيْلًا ولا ارتِفاعًا ولا انخِفاضًا.

في ذلك اليومِ يَتبَعُ النَّاسُ صَوتَ الدَّاعي إلى مَوقِفِ القيامةِ، لا يَنحَرِفونَ عنه ولا يَزيغونَ. وسَكَنَت الأصواتُ؛ خُضوعًا للرَّحمنِ وخَوفًا، فلا تسمَعُ منها إلَّا صوتًا خفيًّا. في ذلك اليومِ لا تنفعُ الشَّفاعةُ أحدًا من الخَلقِ، إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشافعِ والمشفوعِ له، يعلَمُ اللهُ ما يَستَقبِلُه النَّاسُ مِن أمرِ القيامةِ، وما خَلْفَهم مِن أمرِ الدُّنيا، وهم لا يحيطُون بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم عِلمًا.

يقولُ اللهُ تعالى: وخَضَعَت وجوهُ الخلائقِ وذلَّت لخالِقِها، ذي الحياةِ الكاملةِ، الذي لا يَموتُ، القائمِ على تدبيرِ كلِّ شيءٍ، المستغني عمَّن سِواه. وقد خَسِرَ يومَ القيامةِ مَن أشرَكَ مع اللهِ أحدًا مِن خَلقِه، أو عَمِلَ بمَعصيتِه.

ثمَّ يبشِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ، فيقولُ: ومَن يعمَلْ مِن صالحاتِ الأعمالِ وهو مؤمِنٌ بربِّه، فلا يخافُ ظُلمًا بزيادةِ سَيِّئاتِه، ولا هَضمًا بنَقصِ حَسَناتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى اختصاصَ هذا الكتابِ بكونِه عربيًّا، ويبيِّنُ بعضَ الحكمِ مِن إنزالِه، فيقول: وكذلك أنزَلْنا هذا القُرآنَ باللِّسانِ العَرَبيِّ؛ لتُفهَمَ معانيه، وفصَّلنا فيه وكرَّرْنا أنواعًا مِن الوَعيدِ؛ رجاءَ أن يتَّقوا رَبَّهم، أو يُحدِثَ لهم هذا القرآنُ تَذكِرةً.

ثمَّ يقولُ تعالى مثنيًا على ذاتِه: فتنزَّه اللهُ -سبحانَه- وارتفَعَ وتقدَّسَ عن كُلِّ نَقصٍ، الملِكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ.

ثمَّ ينهَى نبيَّه عن التعجُّلِ بقراءةِ القرآنِ، ويأمرُه بسؤالِ المزيدِ مِن العلمِ، فيقولُ: ولا تعجَلْ -يا محمَّدُ- بمُسابقةِ جِبريلَ في تَلَقِّي القُرآنِ قبل أن يَفْرُغَ منه، وقُلْ: ربِّ زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمتَني.

المحور السابع: (115 – 127) قصة آدم. تضمن هذا المقطع حكاية نسيان آدم لعهد الله، واجتباءه له بعد توبته، وتكريم الله له بإسجاد الملائكة له، والتصريح له بعداوة إبليس له، ومكره به، وسعيه إلى إخراجه وزوجه من الجنة، والتفصيل بما أعد الله لآدم في الجنة من نعيم، وإغراء إبليس لآدم وزوجه بالملك الدائم إن هما أكلا من الشجرة، حتى وقعا في المعصية، وبيان ما نتج عن المعصية من العقوبة، من بدو سوآتهما، وإهباطهما إلى الأرض، ثم ما كان من لطف الله تعالى بآدم بالاجتباء والتوبة، لينتهي المقطع ببيان جزاء من أعرض عن منهج الله وثواب من اتبعه.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾﴿115﴾

قال الرازي: مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: لما قال الله تعالى: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ) [طه: 99] ثم إنَّه عظَّم أمرَ القرآنِ، وبالَغ فيه؛ ذكَر هذه القصةَ إنجازًا للوعدِ.

وأيضًا فإنه لما كانت قصةُ موسَى عليه السلام مع فرعونَ ومع قومِه ذاتَ عبرةٍ للمكذبين والمعاندين الذين كذَّبوا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعاندوه، وذلك المقصودُ من قصصِها، فكأن النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم استحبَّ الزيادةَ مِن هذه القصصِ ذاتِ العبرةِ رجاءَ أنَّ قومَه يُفيقون مِن ضلالتِهم؛ أُعقِبتْ تلك

القصةُ بقصةِ آدمَ عليه السلام وما عرض له به الشيطانُ، تحقيقًا لفائدةِ قولِه:(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) [طه: 114].

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ) أي: ولقَدْ وصَّيْنا آدَمَ -وهو في الجنَّةِ- بألَّا يأكُلَ مِن الشَّجَرةِ ولا يَقرَبَها، وحَذَّرْناه مِن طاعةِ الشَّيطانِ، مِن قبلُ، فنَسِيَ وصيَّتي، فلمَّا وسْوَس له الشَّيطانُ أطاعه، وأكَلَ من الشجرةِ. موسوعة التفسير

قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: مِن قبلِ أنْ يأكُلَ مِن الشَّجرةِ عَهِدْنا إليه ألَّا يأكُلَ منها.

أن لأهل العلم قولين في معنى نسيان آدم عليه السلام، هل كان على معنى: الترك المتعمد، وهذا معصية ظاهرة. أو كان على جهة الذهول، وعدم الذكر، ويكون العفو عن النسيان، على هذا، من خصائص الأمة المحمدية، وتخفيف الله عنها. إسلام سؤال وجواب

وقد بيَّن الشنقيطي في كتاب «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»: الأدلَّةَ الدالَّةَ على أنَّ العُذرَ بالنِّسيانِ والخطأ والإكراهِ من خصائِصِ هذه الأمَّةِ، كقوله هنا فَنَسِيَ مع قَولِه وَعَصَى فأسنَد إليه النِّسيانَ والعصيانَ؛ فدَلَّ على أنَّه غيرُ معذور بالنِّسيانِ).

(وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) أي: ولم نجِدْ لآدَمَ عَزمَ قلبٍ على حِفظِ وصِيَّتي، وصَبرًا على الوَفاءِ بعَهدي، وجَزمًا على تَركِ مُخالَفتي. موسوعة التفسير

العزم رفيقه الصبر فإن تخلى عنه ضاع ما تطمح اليه فكلما قوي حبل الصبر لديك كلما تسلقت من خلاله قمم المجد. مها العنزي

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن يضيّعْ يا محمدُ هؤلاء الذين نصرِّفُ لهم في هذا القرآنِ مِن الوعيدِ عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتَّبعوا أمرَ عدوِّهم إبليسَ، ويطيعوه في خلافِ أمري، فقديمًا ما فعَل ذلك أبوهم آدمُ).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾﴿116﴾

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى) أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ؛ طاعةً لي، وتكريمًا له، فسَجَدوا كلُّهم إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع السَّاجِدينَ لآدَمَ. موسوعة التفسير

الله عز وجل عندما أنعم على آدم ... حسده إبليس ورفض أن يعترف بنعمة الله عليه ... فكل من لديه خصلة الحسد بما أنعم الله به على البعض الناس، فاعلم أن لديه أخلاق إبليسيه. مها العنزي

﴿فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾﴿117﴾

(فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) أي: فقُلنا: يا آدَمُ، إنَّ هذا الذي عصاني ولم يسجُدْ لك، عدُوٌّ لك ولِزَوجِك حوَّاءَ. موسوعة التفسير

(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) أي: فاحذَرا أن تُطيعا عَدُوَّكما إبليسَ، فيتسَبَّبَ في إخراجِكما من الجنَّةِ، فتتعَبَ -يا آدَمُ- في طَلَبِ الرِّزقِ والكِسوةِ والسَّكَنِ؛ الذي تحصُلُ عليه في الجنَّةِ بلا مشقَّةٍ. موسوعة التفسير

❍هل وعدك الشيطان بالسعادة في المعصية؟ كيف صدقته؟! وقد وعد أبيك آدم بالسعادة من قبل فجلب له الشقاء. حاتم بن صالح المالكي

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾﴿118﴾

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى) أي: إنَّ لك -يا آدَمُ- ألَّا تَجوعَ في الجنَّةِ، ولا تعرَى عن اللِّباسِ. موسوعة التفسير

❍السّتر والعفاف خيرٌ في الدنيا ونعيمٌ في الجنة. فرائد قرآنية

❍الحشمة والستر من نعيم الجنة الذي تتلذذ به النفوس العفيفة في دنياها. أبرار بنت فهد القاسم

❍من عِظم شأن الستر جعله الرحمن من نعيم الجنان... حجاج العجمي

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾﴿119﴾

(وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) أي: وأنَّك لا تَعطَشُ في الجنَّةِ، ولا تَبرُزُ للشَّمسِ، فيُؤذيَك حَرُّها. موسوعة التفسير

وقال عكرمة: لا تصيبك الشمس وأذاها لأنه ليس في الجنة شمس، وأهلها في ظل ممدود.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾﴿120﴾

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) أي: فألقى إبليسُ إلى آدَمَ وسوستَه، وكلَّمه كلامًا خفيًّا. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: وفي وسوسةِ الشَّيطانِ إلى آدَمَ إشكالٌ معروفٌ، وهو أنْ يُقالَ: إبليسُ قد أُخرِجَ من الجنة صاغرًا مذمومًا مدحورًا، فكيف أمكنه الرجوعُ إلى الجنَّةِ حتى وسوسَ لآدمَ؟ والجوابُ: أنَّه لا إشكالَ في ذلك؛ لإمكانِ أن يَقِفَ إبليسُ خارجَ الجنَّةِ قَريبًا مِن طرفِها بحيث يسمعُ آدَمُ كلامَه وهو في الجنَّةِ، وإمكانِ أن يُدخِلَه الله إيَّاها لامتحانِ آدَمَ وزَوجِه، لا لكرامةِ إبليسَ، فلا مُحالَ عقلًا في شيءٍ من ذلك. والقرآنُ قد جاء بأنَّ إبليس كلَّمَ آدَمَ، وحَلَف له حتى غرَّه وزوجَه بذلك.

كما قال تعالى: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) [الأعراف: 20 - 22].

(قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) أي: قال إبليسُ: يا آدَمُ، هل أدلُّك على شَجَرةٍ إن أكَلْتَ منها تُخلَّدْ في الجنَّةِ فلا تمُتْ، ويكُنْ لك مُلكٌ لا يَفنى ولا ينقَطِعُ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) [الأعراف: 20].

❍أعظم وسائل إغواء إبليس للإنسان إغراؤه بطول الأمل وتحقّق الرئاسة والسيادة. عبد العزيز الطريفي

❍ما كل كلامٍ معسول، خلفه خيرٌ مأمول! عايض المطيري

❍عرض المحرمات في صورة مباحات أسلوب بدأه إبليس مع آدم واتخذته ذريته من بعده. عبد العزيز الطريفي

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾﴿121﴾

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) أي: فأكَلَ آدَمُ وحَوَّاءُ من الشَّجرةِ التي نهاهما اللهُ عنها، فظَهَرت لهما عوراتُهما بعدما كانت مستورةً عن أعيُنِهما. موسوعة التفسير

❍الستر واجب شرعي وفطرة في الإنسان، فمن لم يبال بكشف عورته فقد تجاوز شريعته وإنسانيته. سعود الشريم

❍أكل الحرام من أسباب العقوبة بالتعري والسفور، ولا يقع تعري النساء والرجال في أمة إلا سبق ذلك أكل الحرام. عبد العزيز الطريفي

❍لما أكل آدم وحواء من الشجرة عوقبا ببدو عوراتهما فكانت أول عقوبة لبني آدم، ثم مازال الشيطان بذريتهما حتى كشفوا العورات بحجة التحضر والموضة. د. محمد السريع

قال الشنقيطي: (الفاءُ في قَولِه فَأَكَلَا تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ أكلِهما هو وسوسةُ الشَّيطانِ المذكورةُ قَبلَه في قَولِه: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ أي: فأكلا منها بسببِ تلك الوسوسةِ. وكذلك الفاءُ في قوله: فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ ذلك هو أكلُهما من الشَّجَرةِ المذكورةِ، فكانت وسوسةُ الشيطانِ سَبَبًا للأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، وكان الأكلُ منها سببًا لبدُوِّ سَوءاتِهما).

(وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) أي: وأخَذَ آدَمُ وحَوَّاءُ يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجنَّةِ؛ لِيَستُرا به عوراتِهما. موسوعة التفسير

(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) أي: وخالَف آدَمُ وصِيَّةَ رَبِّه، فأكَل مِن الشَّجَرةِ التي نهاه اللهُ عن الأكلِ منها، فأخطأَ طَريقَ الصَّوابِ، ولم يحصُلْ على ما وعَدَه الشَّيطانُ. موسوعة التفسير

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾﴿122﴾

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) أي: ثم اصطَفَى الله تعالى آدَمَ بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليها منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة: 37].

كما قال تعالى: (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الأعراف:23].

❍لا تترك التوبة لمعاصيك السابقة ولا تظن بالله سوءاً إنه لك يغفر لك فقد أقر أدم بالذنب فتاب الله عليه. روائع القرآن

❍قد تكثر ذنوبك وأفعال قبيحة تخجل ان يعرفها أحد لكن... لا تيأس فهنالك رب رحيم يغفر ويتجاوز هو من يهد قلبك ويمحو ذنبك. مها العنزي

قال السعدي: فتَمَّت النِّعمةُ عليه وعلى ذرِّيَّتِه، ووجَبَ عليهم القيامُ بها والاعترافُ، وأن يكونوا على حَذَرٍ مِن هذا العدُوِّ المرابطِ الملازِمِ لهم، ليلًا ونهارًا.

قال ابن عثيمين: قد يكونُ الإنسانُ بَعْدَ الذَّنبِ أعلى مقامًا منه قَبلَ الذَّنبِ؛ لأنه قَبْلَ الذنبِ قد يكون مُستمرِئًا للحالِ التي كان عليها، وماشيًا على ما هو عليه، معتقدًا أنه كاملٌ، وأنْ ليس عليه ذنوبٌ، فإذا أذنبَ وأحسَّ بذنبه رجعَ إلى الله وأنابَ إليه، وأخْبَتَ إليه، فيزدادُ إيمانًا، ويزدادُ مقامًا، فيرتَفِعُ مقامُه عند الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى في آدَمَ: وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فجَعَلَ سبحانه الاجتباءَ بعد هذه المعصيةِ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى، وهذا كثيرًا ما يقعُ: إذا أذنبَ الإنسانُ عَرَفَ قَدْرَ نفسِه، وأنه محتاجٌ إلى الله، ورجعَ إلى الله، وأحسَّ بالخطيئةِ، وأكثرَ مِن الاستغفارِ، وصار مقامُه بَعْدَ الذنبِ أعلى مِن مقامِه قَبْلَ الذَّنبِ.

قال الشنقيطي: إنَّ الأنبياءَ صلوات الله وسلامه عليهم لم يقعْ منهم ما يُزري بمراتبِهم العليةِ، ومناصبِهم الساميةِ، ولا يستوجبُ خطأً منهم، ولا نقصًا فيهم صلواتُ الله وسلامُه عليهم –ولو فرضنا أنَّه وقَع منهم بعضُ الذنوب–؛ لأنهم يتداركون ما وقَع منهم بالتوبةِ، والإخلاصِ، وصدقِ الإنابةِ إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلَى درجاتِهم، فتكونَ بذلك درجاتُهم أعلَى مِن درجةِ مَن لم يرتكِبْ شيئًا مِن ذلك. ومما يوضِّحُ هذا قولُه تعالى: وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى، فانظرْ أيَّ أثرٍ يبقَى للعصيانِ والغيِّ بعدَ توبةِ الله عليه، واجتبائِه أي: اصطفائِه إيَّاه، وهدايتِه له، ولا شكَّ أنَّ بعضَ الزلاتِ ينالُ صاحبُها بالتوبةِ منها درجةً أعلى مِن درجتِه قبلَ ارتكابِ تلك الزلةِ.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾﴿123﴾

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا) أي: قال اللهُ لآدَمَ –ومعه زوجُه حواءُ التي هي تبَعٌ له– وإبليسَ: اهبِطا من الجنَّةِ إلى الأرضِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: قال تعالى: اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا والإهباطُ تارةً يَذكُرُه بلَفظِ الجَمعِ، وتارةً بلَفظِ التَّثنيةِ، وتارةً بلَفظِ الإفرادِ، كقَولِه في سورةِ الأعرافِ: قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا [الأعراف: 13]، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليسَ وَحدَه، وحيث ورد بصيغةِ الجَمعِ فهو لآدَمَ وزَوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القِصَّةِ عليهم، وحيث ورد بلَفظِ التَّثنيةِ فإمَّا أن يكونَ لآدَمَ وزَوجِه؛ إذ هما اللَّذانِ باشرَا الأكلَ مِن الشَّجَرةِ وأقدَمَا على المعصيةِ،

وإمَّا أن يكونَ لآدَمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوَا الثَّقَلينِ وأصلَا الذُّرِّيةِ؛ فذَكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عِظةً وعِبرةً لأولادِهما.

(**بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**) أي: تقَعُ العداوةُ بينكم؛ فآدمُ وذريَّتُه من جهةٍ، وإبليسُ وذُرِّيتُه مِن جِهةٍ أخرى. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) [فاطر: 6].

(**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**) أي: فإنْ يأتِكم -يا بني آدَمَ- مِن عندي رسولٌ أرسِلُه إليكم، وكِتابٌ أُنزِلُه عليكم؛ فمَن اتَّبَعَ رُسُلي وعَمِلَ بكُتُبي، اهتَدى، وسعِد في الدُّنيا والآخرةِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ القيم: فلمَّا كَسَره سُبحانَه بإهباطِه مِن الجنَّةِ، جَبَرَه وذريَّتَه بهذا العَهدِ الذي عَهِدَه إليهم.

قال ابن عثيمين: (نَفْيُ الضلالِ والشقاءِ عنهم يتضمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدنيا والآخرةِ).

قال ابن عاشور: في هذه الآيةِ وِصايةُ اللهِ آدَمَ وذُرِّيتَه باتِّباعِ رُسُلِ الله والوَحيِ الإلهيِّ، وبذلك يُعلَمُ أنَّ طَلَبَ الهدى مركوزٌ في الجبلَّةِ البَشَريَّةِ.

الطريق عندما يكون مستقيماً قناديله تضيء معالمه فإن سلوكه راحة للنفس وامان عكس الطريق المتعرج المعتم. مها العنزي

قال ابنُ الجوزي: (تأمَّلت قولَه تعالى: فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) [طه:123]: قال المفسرون: هُدَايَ: رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وكتابي. فوجدتُه على الحقيقةِ: أنَّ كلَّ مَن اتَّبع القرآنَ والسنةَ، وعمِل بما فيهما، فقد سلِم مِن الضلالِ بلا شكٍّ، وارتَفع في حقِّه شقاءُ الآخرةِ بلا شكٍّ، إذا مات على ذلك)

قال ابن القيم: فضَمِن سُبحانَه لِمن اتَّبع هداه -وهو كلامُه- الهُدى في الدُّنيا والآخرةِ، والسَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ، فهاهنا أمرانِ: طريقةٌ وغايةٌ؛ فالطريقةُ: الهُدى، والغايةُ: السَّعادةُ والفلاحُ؛ فمَن لم يسلُكْ هذه الطَّريقةَ لم يَصِلْ إلى هذه الغايةِ.

قال ابن القيم: بيانُ أنَّ ثوابَ المتَّبِعينَ لهداه أنَّهم لا يَضِلُّون ولا يَشقَونَ، ونفيُ الضَّلالِ والشقاءِ عنهم يتضَمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ، فالهُدى والسعادةُ مُتلازِمانِ، والضَّلالُ والشَّقاءُ مُتلازِمانِ.

مَنْ تَمَسَّك بهذا الذِّكْر - وهو القرآن - فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، وتحصُل له الطُّمأنينة، وانشراح الصدر، والشِّفاء من أمراض الأبدان والقلوب، والهداية إلى صراط الله المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ....﴾ [الإسراء: 82]

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾﴿124﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا وعد اللهُ تعالى من يتَّبعُ الهدى، أتبَعَه بالوعيدِ فيمن أعرَضَ، فقال

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) أي: ومَن أعرَضَ عن كتابي فلم يتدَبَّرْه ولم يعمَلْ بما فيه؛ فإنَّ له معيشةً ضَيِّقةً مُدَّةَ حياتِه في الدُّنيا، وبعدَ مَوتِه في البَرزَخِ، وفي معادِه في الآخرةِ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير – رحمه الله –: "أي: في الدنيا، فلا طُمأنينة له ولا انشراح لصدره؛ بل صدره ضيِّقٌ حَرَجٌ لضلاله، وإن تنعَّم ظاهرُه، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء – فإن قلبه ما لم يَخْلُص إلى اليقين والهدى، فهو في قلقٍ وحيْرةٍ وشكٍّ، فلا يزال في ريبةٍ يتردَّد، فهذا من ضنك المعيشة.

(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) أي: ونحشُرُ المعرِضَ عن ذِكري يومَ القيامةِ أعمى لا يُبصِرُ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: أصلُ الضَّنكِ في اللُّغةِ: الضِّيقُ والشِّدَّةُ، فهذه المعيشةُ الضَّنكُ في مقابلةِ التَّوسيعِ على النَّفسِ والبَدَنِ بالشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ والرَّاحةِ؛ فإنَّ النَّفسَ كُلَّما وَسَّعْتَ عليها ضَيَّقْتَ على القَلبِ، حتى تصيرَ معيشةً ضنكًا، وكلَّما ضَيَّقْتَ عليها وسَّعْتَ على القَلبِ حتى ينشرِحَ وينفَسِحَ، فضَنكُ المعيشةِ في الدنيا بموجِبِ التقوى سَعَتُها في البرزخِ والآخرةِ، وسَعَةُ المعيشةِ في الدنيا بحُكمِ الهوى ضَنكُها في البَرزخِ والآخرةِ؛ فآثِرْ أحسَنَ المعيشتَينِ وأطيبَهما وأدوَمَهما، وأشْقِ البَدَنَ بنَعيمِ الرُّوحِ، ولا تُشْقِ الروحَ بنعيمِ البَدَنِ؛ فإنَّ نَعيمَ الرُّوحِ وشقاءَها أعظَمُ وأدوَمُ، ونعيمُ البَدَنِ وشَقاؤه أقصَرُ وأهوَنُ، واللهُ المستعانُ

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تضَمَّنَت هذه الآيةُ أنَّ مَن أعرَضَ عن الهُدى المنَزَّل –وإنْ لم يُكَذِّبْ به– فإنَّه يكونُ يومَ القيامةِ في العذابِ المهينِ، وأنَّ معيشتَه تكون ضَنْكًا في هذه الحياةِ وفي البَرزخِ والآخرةِ، وهي المضنوكةُ النَّكِدَةُ المحشوَّةُ بأنواعِ الهُمومِ والغُمومِ والأحزانِ، كما أنَّ الحياةَ الطيِّبةَ هي لِمَن آمنَ وعَمِلَ صالحًا.

الشقاء لا يكون بفقد الدنيا ونقصها وإنما بفقد الإنسان للدين وتقصيره فيه. عبد العزيز الطريفي

يَشْمَلُ الكافرَ –وله منها حقُّ الوعيدِ– ويَشملُ المؤمِنَ المرتكِبَ الكبيرة –وله نصيبٌ مِن ضَنْكِ العيشِ بقَدْرِ إعراضِه عن الذِّكرِ– ومذهَبُ أهلِ السُّنَّة أنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ تَجتَمِعُ فيه الحَسَناتُ والسيِّئاتُ، فيستَحِقُّ الثَّوابَ والعِقابَ جَميعًا. (مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية) للبعلي

فيه سؤالٌ: أنَّنا نرى من المعرِضينَ عن الإيمانِ من يكون في أخصَبِ عيشةٍ؟! والجواب: أنَّ المعرضَ عن الإيمانِ وإن تنعَّم في الدنيا بأصنافِ النِّعم، ففي قلبِه مِن الوحشةِ والذلِّ والحسراتِ التي تقطعُ القلوبَ، والأماني الباطلةِ والعذابِ الحاضرِ ما فيه، وإنما يواريه عنه سكراتُ الشهواتِ، والعشقُ وحبُّ الدنيا والرياسةِ، وإن لم ينضمَّ إلى ذلك سكرُ الخمرِ، فسكرُ هذه الأمورِ أعظمُ مِن سكرِ الخمرِ، فإنه يفيقُ صاحبُه ويصحو، وسكرُ الهوى وحبِّ الدنيا لا يصحو صاحبُه إلا إذا كان صاحبُه في عسكرِ الأمواتِ،

فالمعيشةُ الضنكُ لازمةٌ لمن أعرضَ عن ذكرِ الله الذي أنزله على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم في دُنياه وفي البرزخِ ويومَ معادِه. موسوعة التفسير

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾﴿125﴾

(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا) أي: قال: يا رَبِّ، لماذا حَشَرتَني أعمى، وقد كنتُ في الدُّنيا مُبصِرًا، وما الذي صيَّرني إلى ذلك. موسوعة التفسير

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾﴿126﴾

(قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا) أي: قال اللهُ له: كذلك جاءتك آياتُ كتابي فتركْتَ الإيمانَ بها وتدبُّرَها، وأعرضتَ عن العَمَلِ بها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (...وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) [الزمر: 55 - 59].

(وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) أي: فكما تركتَ آياتي في الدُّنيا ولم تعمَلْ بها، فكذلك يومَ القيامة تُترَكُ في العذابِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثيرٍ: (أي: لَمَّا أعرضْتَ عن آياتِ الله، وعامَلْتَها معاملةَ مَن لم يذكُرْها، بعد بلاغِها إليك تناسَيْتَها وأعرَضْتَ عنها وأغفَلْتَها، كذلك نعامِلُك اليوم معاملةَ مَن ينساك... فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمل)

كما قال تعالى: (فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) [الأعراف: 51].

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾﴿127﴾

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ) أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ الشَّديدِ لِمن أعرَضَ عن ذِكري، نجزي كُلَّ مَن جاوزَ الحَدَّ، فعصى رَبَّه ولم يؤمِنْ بآياتِه. موسوعة التفسير

(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) أي: وللعذابُ الواقِعُ في الآخرةِ أشدُّ ألَمًا، وأدوَمُ على أصحابِه بلا انقِطاعٍ. موسوعة التفسير

قال البغوي: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مما يعذبهم به في الدنيا والقبر.

قال الرازي: (بَيَّنَ... أَنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأبقَى؛ أَمَّا الأشدُّ فلعِظَمِه، وأمَّا الأبقَى فلأنَّه غيرُ مُنْقَطِعٍ).

كما قال تعالى: (لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) [الرعد: 34].

وقال سُبحانَه: (فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [الزمر: 26].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى) [فصلت: 16].

قال ابنُ القيّم – رحمه الله –: "كلُّ مَن أعرضَ عن شيءٍ من الحقِّ وجحَدَه وقعَ في باطلٍ مُقابِلٍ لِما أعرضَ عنه من الحقِّ وجحَدَه ولا بُدَّ، حتى في الأعمال مَن رغِبَ عن العملِ لوجهِ الله وحده ابتلاهُ الله بالعملِ لوجوهِ الخلق، فرغِبَ عن العمل لمن ضُرُّه ونفعُه، وموتُه وحياتُه وسعادتُه بيدِه، فابتُلِيَ بالعملِ لمن لا يملِكُ له شيئًا من ذلك.

فالقانون الإلهي الذي لا يتغير ولا يتبدل و الذي يحكم من اتبع هداه وآمن برسله ومن أعرض عن شرعه واتبع هواه قانون واضح جلي وسننه لن تتغير ولن تتبدل، فقال سبحانه: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)، فقد أوجب الله له الهداية و السعادة في الدنيا والآخرة فلا يضل ولا يشقى ويبين أيضا سبحانه وتعالي أن الإيمان بالله واتباع هديه سبب للرزق والعيشة الهنية، ولكن هذه السعادة وذلك النعيم مرتبط باستمرار الطاعة لله والسير علي هدي الرسل، فإن تغيرت أحوال البشر وتبدلت قلوبهم فاستبدلوا الإيمان بالكفر والطاعة بالمعصية والإصلاح بالفساد فسنة الله أن يغير حالهم و أن يسلب منهم النعم ويحل عليهم العذاب والشقاء.

كلنا في هذا الزمن يشتكي من تغير الأحوال ومن أمراض القلوب، والكثير منا يشتكي من قلة الرزق رغم أن الأرض مليئة بالخيرات، والكثير منا يشتكي من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والكثير منا يشتكي من عقوق الأبناء وظلم الآباء، والكثير منا يشتكي من الرشوة والفساد، وغيرها وغيره من أمراض المجتمع...

وهناك أسباب متعددة لتغيير الله سبحانه وتعالى لحال البشر من الخير إلى الشر ومن النعيم إلي العذاب ومن السعادة إلي الشقاء، فمن هذه الأسباب : 1- الانحراف عن المنهج وترك العمل بالشرع والدين، 2- المعاصي والذنوب: فاذا كثرت المعاصي والذنوب وغفل الخلق عن طاعة علام الغيوب غير الله حالهم وسلب منهم نعمه ورضوانه ، 3- الظلم: فاذا عم الظلم بين العباد وانتشر الفساد واصبح كل منهم يشتكي من ظلم الآخرين غير الله حالهم وأنزل عليهم سخطه وغضبه وعذابه، 4- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، 5- التنافس على الدنيا، قال رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" فَوَ اللَّهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ".

ماهي سبل النجاة؟ وما هو طريق الفلاح؟ وكيف يتغير حالنا للأفضل؟

1 التوبة والرجوع إلى الله تعالى: قال الله تعالى: (وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [النور:31].

❷الاعتصام بالكتاب والسنة أفراداً وجماعات: قال الله تعالى:(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ) [آل عمران:103].

❸الاجتماع والتعاون على البر والتقوى: قال الله تعالى: (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ) [المائدة:2].

❹الصبر: قال الله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [آل عمران:200].

❺الدعاء: قال الله تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غافر:60].

- يا ابن آدم إنك في هذه الدنيا عرضة للبلايا والرزايا، فاستغفر ربك، وتب من ذنبك، ولا تكن شاة الراعي أعقل منك، تزجرها الصيحة، وتطردها الإشارة.
- إن من عرف حقيقة الدنيا زهد فيها، وأهانها؛ ليعيش عزيزا كريما.
- إن الدنيا مطية إن ركبتها حملتك، وإن حملتها أثقلتك، فكم من محتال فيها خدعته، سرورها إلى حزن، وعافيتها إلى سقم، ووجودها إلى عدم، عزيزها مغلوب، وأيامها دول، وحلوها مر، واجتماعها إلى افتراق، وبناءها إلى خراب.